

تلمسان مدينة التمام للشيخ أحمد المقرئ

د. محمد بن اعر

جامعة تلمسان

بلغة فيها كثير من النوستالجيا، و بريق الحسن و الجمال، يتعرض الشيخ أحمد المقرئ في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" إلى ذكر مدينة تلمسان، و التعريف بها، فيقول : "و تلمسان هذه، هي مدينتنا التي علقنا بها التمام"⁽¹⁾ و لعلّه يقصد بذلك خلاصة هذه المدينة، و تحصينها لها من عين كل حاسد، أو لم تكن مركز حلمه و مدينة أسلافه الأولين؟

و هذا التساؤل يجيب عنه المقرئ منذ البدء، إذ يشير إلى أنّ صلاته عريقة بها، و هي تعود إلى جده الخامس، فيقول : "وقد نزلها من سلفنا الصالح عبد الرحمن بن أبي بكر المقرئ ابن علي صاحب الشيخ أبي مدين، الذي دعا له و لذريته بما ظهر فيهم قبوله و تبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم"⁽²⁾.

و هكذا تكون تلمسان هي المدينة الأمّ، و ملتقى أقطاب العلم من أهل الله، لا تشاكلها مدينة و لا تناظرها أخرى، حتى غدت عنده من أحسن مدائن المغرب، ماء و هواء، و هما عنصران حيويان لا تقوم حياة بسواهما ، و بهذا يجعل المقرئ من تلمسان الحياة كلها، و يتركز في هذا التعريف الجمالي و الفيزيائي على مصادر ذات شأن في الأوساط الثقافية والعلمية المغربية و الأندلسية، و من ذلك اعتماده على وصف الشعراء الذين كان لهم القُدْمة في وصفها و التغني بجمالها و طبيعتها، فيقول : "وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسبما قال ابن مرزوق: يكفيك منها مأواها وهواؤها"⁽³⁾.

و هذا التناص الجغرافي و الأدبي في فكر الشيخ المقرئ، يشي بإطلاعه الواسع على شؤون تلمسان و معرفته بأدائها و أدبائها و ما قيل فيها، مما يجعله يعمل على تحديد موقعها جغرافيا، و رسم حدودها شمالا و جنوبا، فيعتمد في ذلك على ما نقله عن يحيى بن خلدون فيقول : "وقال الكاتب أبو

زكريا يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد، وأيام أبي حمو الشاحنة الأطواد، بعد كلام في شأن البربر، ما صورته: و دار ملكهم وسط بين الصحراء و التل".⁽⁴⁾

و هذا التحديد في الجغرافيا والمكان، يقوده إلى التحديد الإيتيمولوجي لكلمة تلمسان، و مرجعيته في ذلك ما نقله عن صاحب بغية الرواد، الذي يجعلها تسمى بلغة البربر "تلمسن"، و هي في نظره كلمة مركبة، و عند تفكيكها تمدّ قارئها ب :

تَلَمْ و معناها : تجمع

و سَنْ و معناها : اثنان

و هذا يعني أنها مدينة تجمع بين طبيعتين أرضيتين مختلفتين هما : الصحراء و التل، فيما ذكره شيخه "العلامة عبد الله الآبلي، رحمه الله وكان حافظا بلسان القوم"⁽⁵⁾، وهذا المفهوم عنده، يشكل من منظور رياضي، معادلة لغوية ذات أطراف ثلاثة، نستطيع تبينها بالشكل الآتي :

تَلَمْ + سَنْ = تجمع + اثنان = التلّ + الصحراء

و لم يكتف المقري بهذا التعريف اللغوي البربري لمدينة تلمسان، بل يسوق تعريفا مركبا آخر مختلفا رسما و معنى عن السابق، ولكنه كالأول مركب، فيقول : "ويقال تلمسان، وهو أيضا مركب من "تلم" و معناها لها، و "شان" أي لها شأن".⁽⁶⁾ ونستطيع تبين معادلتها اللغوية كالاتي:

تَلَمْ + شَانْ = لها + شأن = لها شأن

وينتقل المقري من هذا الاستعراض اللغوي المتنوع الذي استقاه من مصادر عالمية، إلى

الاستعراض الفني و الجمالي و البيئي لمدينة تلمسان، و يركز في ذلك على صور متعددة هي :

أولا: صورة العراقة و التاريخ، فيقول : "وهي مدينة عريقة في التمدن"⁽⁷⁾.

ثانيا :صورة جمالية المكان و المناخ، فيقول : "الذيذة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل، و دُوِّين رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب، عروسا فوق منصة، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ..."⁽⁸⁾.

ثالثا : صورة الطبيعة الحية و الصناعية فيقول : "وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، و الصروح الشاهقة، و البساتين الرائقة، مما زخرفت عروشه، و نمّقت غروسه،

و نوسبت أطواله، و عروضه ، فأزرى بالخورنق، و أخجل الرّصافة، و عبث بالسّدير، و تنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن، تتجاذبه أيدي المذائب و الأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد و المدارس و السقايات بالقصور وعليه الدّور والحمامات، فيفعم الصهاريج، و يفهق الحياض، و يسقي ريعه خارجها مغارس الشجر، و منابت الحبّ " (9).

رابعا : صورة أثر المدينة في المتلقي : فيقول : "فهني التي سحرت الألباب زواء، وأصبت النّهي جمالا" (10).

و هكذا تصبح مدينة تلمسان عند المقرّي ، مدينة كُوسْمُبوليتيا، روادها الشعراء والمدّاحون الذين قالوا فيها و أطالوا، و لم يستثن منهم نفسه، فهو واحد منهم، غير أن جمالها يخرس لسانه، فيستعير قول بن خفاجة في الأندلس في مدحها و التغني بجمالها، لاستحقاقها إتياء على حدّ تعبيره و ينشد : (11)

ما جنة الخلد إلّا في منازلكم) و هذه كنت لو خيرت أختار

لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرا) فليس تدخل بعد الجنة النار

ويخلص المقرّي بعد هذا التوصيف ، إلى أنّ تلمسان مدينة كثيرة الخيرات، و عطاءاتها الفلاحية و الحيوانية متنوعة و أن ساكنتها مزيج من البربر و العرب، و في ذلك يقول : "وتوسّطت قطرا ذا كُورٍ عديدة، تعمّرها أمشاج البربر و العرب، مريعة الجنبات، منجبة للحيوان و النبات، كريمة الفلاحة ، زاكية الإصابة، فرما انتهت في الزواج الواحد منها إلى أربعمئة مدّ كبير، ثمّ أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور" (12).

و يستكمل المقرّي صورة هذا التوصيف بما نقله عن لسان الدين بن الخطيب، وبخاصة ما تعلق بجغرافيا المدينة و مناخها و مائها و زينتها و ثمارها، وهو تصوير يوحي بعظمة المكان، و سلطانه على النفوس، حتى كأنّه ملك على رأسه تاج ، و بهذا يتحول الوصف عنده إلى مديح فيقول : "تلمسان مدينة جمعت بين الصّحراء و الرّيف، و وضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، و حواليه من الدوحات حشمه و أعلاجه، عبّادها يدها و كهفها كفّها، و زينتها زياتها، و عينها أعيانها، هواؤها الممدود صحيح عتيد، و ماؤها برود صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها ولا

شحوب، خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، و متاجرتها فريدة الانتفاع، و برانسها رفاق رفاع"⁽¹³⁾.

ولما كانت تلمسان بهذه الصورة الزاهية، فإنها كانت دوما مدينة مرغوبة، و هدفها سائغا للطامعين، و يجعل مجازا من فاكهة حب الملوك التي اشتهرت بها سببا لطمع الملوك فيها، على حدّ تعبير لسان الدين بن الخطيب، ويربط بين ذلك، و بين بعض سلوكيات أهلها فيقول: "إلا أنها بسبب حبّ الملوك، مطمعة للملوك، و من أجل جمعها الصّيد في جوف الفرا، مغلوبة للأمر، أهلها ليست عندهم الرّاحة، إلاّ فيما قبضت عليه الرّاحة، ولا فلاحه، إلاّ لمن أقام رسم الفلاحه، ليس بها لسع العقارب، إلاّ فيما بين الأقارب، و لا شطارة إلاّ فيمن ارتكب الخطارة".⁽¹⁴⁾

و يلاحظ أن هيام الشيخ المقرّي بتلمسان كان وفيرا، و أن طيفها لم يكن يغادر مخياله لحظة، فهي معه و فيها أينما حل و ارتحل و أنه كان يلهج بها في كل وقت و مكان، حتى إنه همّ بتخليدها في كتاب ممتع، يذكر فيه مآثرها و تاريخها و زينتها، لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، و في ذلك يقول: "وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسمّيه بـ"أنواء نيسان في أنباء تلمسان"، و كتبت بعضه، ثم حالت بيني و بين ذلك العزم الأقدار، و ارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى و الخطابة و غيرها، ثم ارتحلت بنية الحجاز، و جعلت إلى الحقيقة الحجاز، و ها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية، و في علم الله تعالى ما لا نعلم، و التسليم لأحكام الأقدار أسلم، والله تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيه و مصطفىاه صلى الله عليه وسلم"⁽¹⁵⁾.

و بعد هذه الجولة الممتعة، التي طاف فيها بنا المقرّي في تاريخ تلمسان و ربوعها، يتكشف لنا سرّ جمال هذه المدينة الحاملة عبر الأعصر، و يتكشف لنا معه سرّ قوله في بادية كلامه عنها: "وتلمسان، هذه، هي مدينتنا التي علّقت بها التمام". و ما ذاك إلا تعاويز لشدة خوف أهلها من أعين الحساد عليها.

1- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، سنة

1408هـ/1988م: 133./7

2- نفسه ، 133./7

3 - نفسه ، 133./7

4- نفسه ، 133./7

5- نفسه ، 133/7-134.

6- نفسه ، 134./7

7- نفسه ، 134./7

8- نفسه ، 134./7

9- نفسه ، 134./7

10- نفسه ، 134./7

11- نفسه ، 134/7-135.

12- نفسه ، 135./7

13- نفسه ، 135./7

14- نفسه ، 135./7

15- نفسه ، 135/7.